زوج النبي

obeikandl.com

obeikandl.com

كانت السيدة خديجة رضى الله عنها اول زوجات النبى عليه السلام وأحبهن اليه ، عاش معها زهاء خمس وعشرين سنة ولم يتزوج عليها ولا فكر فى الزواج بغيرها فى حياتها. مع انه بنى بها وهو فى نحو الخامسة والعشرين وهى فى نحو الاربعين ، وبقيت معه الى ان اوفت على الخامسة والستين

ثم توفيت حوالى السنة العاشرة بعد الدعوة ، فلم يعرف عنه انه حزن على احد قط اشد من حزنه عليها ، ولا اطال الذكرى لأحد قط بعد وفاة كما اطال ذكراها ، وسمى عام وفاتها « عام الحزن » لان الحزن لم يفارقه طوال ايامه ، ولم يفارقه ــ فى الواقع ــ بقية حياته كلها ، وان سكنت سورته مع الأيام كما تسكن كل سورة لاعجة مع ذلك العزم الصادق والقلب الصبور

وتزوج بالسيدة عائشة بعد وفاة السيدة خديجة بسنوات

فكان التقابل بين الزوجين من اتم ما تأتى به المصادفة حين تكون المصادفة احكم من التدبير والتقدير ، ولعل هذا التقابل لم يخل كل الخلو من القصد الخفى وان لم تتجه اليه النية فى وضوح

ويبدو لنا أن النبى عليه السلام كان أحوج ما يكون الى هذا التقابل العجيب فى حياته الزوجية

فالفتى اليتيم الذى فجع فى حنان الأمومة منذ طفولته الباكرة لم يكن انفع له من زوجة كريمة رشيدة كالسيدة خديجة التى اغدقت عليه من حنان الأمومة ما فاته فى بواكير الطفولة ، وادركه عطفها وهو يعالج من نوازع الدعوة النبوية ثورة مقيمة مقعدة فى سريرة النفس لا تزال بين الجلاء والغموض وبين الاقدام والاحجام ، ولا يزال فى هذه الحالة على حاجتها القصوى الى التثبيت والكلاءة والتشجيع

اما النبى فى الخمسين من عمره فقد كان انفع له وابهج لفؤاده ان يغدق حنان الابوة على زوجته التى تظفر منه بالحظوة والمودة ، وان يستروح من شبابها وجمالها نعمة تسعده فى جهاده وربيعا يظلله فى وحشة عمره

كانت خديجة أما ترعاه

ثم كانت عائشة طفلة تنعم بتدليله

وكانت خديجة تسعده بالعقل والحنكة

ثم كانت عائشة تسعده بالطرافة والجمال

وكانت خديجة تصاحبه قبل الدعوة وهو يطلب الانصار فى طوية النفس قبل ان يطلبهم فى عالم النضال والبلاء

ثم كانت عائشة تصاحبه بعد الدعوة وهو صاحب دين جهر وبهر ، فكانت هى أول سفرائه بالاصهار الى رجالات

كان تقابلا بين الزوجين الفضليين من أعجب ما تأتى بـه المصادفة بل من اعجب ما يأتى به التدبير ، وليس هنـاك تدبير معروف

فالذى نعلمه من خطبة النبى عليه السلام للسيدةعائشة انها كانت من المصادفات التى لم يتحدث بها قط قبل أن تقترح عليه

نعم انه عليه السلام قال لعائشة يوما : « أريتك فى المنام مرتين أرى أنك فى سرقة من حرير ويقال : هذه امرأتك ! فأكشف عنها فانما هى انت . فأقول : ان يك هذا من عند الله يمضه »

ولكن الحديث يدلنا على مبلغ ما كان فى ضمير النبى عليه السلام من هذه النية ، وقد يفهم منه انه كان عليه السلام يناجى نفسه الشريفة بأمنيته فى الزواج فطابقت السيدة عائشة مثال هذه الأمنية ، وكان هذا من بواعث حبه اياها لمطابقة الرؤية ما تمثله فى الرؤيا

فأما الخطبة فالذى نعلمه من الروايات المتواترة انهـا جاءت بعد اقتراح من سيدة بارة آلمها ما لحظته من حزن النبى على زوجه العزيزة عليه . فقالت له : أى رسول الله ! الا تتزوج ؟ فسألها : من ؟ قالت : ان شئت بكرا وان شئت

نيبا . ثم سألها عن البكر فذكرت عائشة « بنت أحب خلق الله اليك » ... وسألها عن الثيب فذكرت سودة بنت زمعة . فأوفدها الى بيت ابى بكر وجرت الخطبة بعد ذلك فى مجراها الذى انتهى بالزواج بعد سنوات

هذه السيدة هى خولة بنت حكيم امراة عثمان بن مظعون من أجلاء الصحابة الذين حرموا الخمر فى الجاهلية وعاش بعد الاسلام عيشة النسك والحكمة . وبقية حديث الخطبة انها ذهبت الى أم رومان ـ أم عائشة ـ فباداتها بالحديث قائلة : ما ادخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ قالت : وما ذاك ؟ قالت : ارسلنى رسول الله اخطب عليه عائشة . فاستمهلتها حتى ترى أبا بكر ، وقيل ان ابا بكر سأل حين بلغه الأمر : وهل تصلح له وهى بنت اخيه ؟ يظن ان المؤاخاة بينه وبين النبى قد بلغت مبلغ القرابة التى تمنع المصاهرة . فكان جواب النبى لها : « قولى له انت اخى فى الاسلام وابنتك تحل لى » كما جاء فى هذه الرواية

والى هذا الحين لم يكن فى تقدير احد ان صلة من أوثق الصلات ستنعقد بين النبى وصفيه الحميم . لأن عائشة كانت مخطوبة قبل ذلك لجبير بن مطعم بن عدى من اصحاب ابيها فى الجاهلية . فتحرج ابو بكر من نقض خطبته قبل مراجعته فيما ينويه ، وقال لأم رومان زوجته : والله ما أخلف ابو بكر وعدا قط . ثم لقى أبا الفتى وامه يسألهما فيما

ينتويانه . فأقبل الأب على امرأته يسألها : ما تقولين ! فالتفتت الأم الى ابى بكر وهى تقول متعللة : لعلنا ان انكحنا هذا الصبى اليك تصبئه وتدخله فى دينك الذى انت عليه ؟ فلم يجبها وسأل زوجها : ما تقول انت ؟ فلم يزده على أن أجاب : انها تقول ما تسمع

فعلم أبو بكر يومئذ انه فى حل من نقض وعده لمطعم بنى عدى ، واستقبل النبى خاطبا فتمت الخطبة فى شوال سنة عشر من الدعوة قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وأصدقها النبى عليه السلام اربعمائة درهم على أشهر الروايات

وتختلف الأقوال فى سن السيدة عائشة يوم زفت الى النبى عليه السلام فى السنة الثانية للهجرة ، فيحسبها بعضهم تسعا ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات

وهو اختلاف لا غرابة فيه بين قوم لم يتعودوا تسجيل المواليد . اذ قلما يسمع بانسان ـ رجلا كان او امراة ـ فى ذلك العصر الا ذكر له تاريخان أو ثلاثة لميلاده او زواجه او وفاته . وقد يبلغ الاختلاف بين تاريخ وتاريخ فى تراجم المشهورين فضلا عن الخاملين عشر سنين

والأرجح عندنا ان السيدة عائشة كانت لا تقل عند زفافها الى النبى عليه السلام عن الثانية عشرة ولا تتجاوز الخامسة عشرة بكثير

فقد جاء فى بعض المواضع من طبقات ابن سعد انها خطبت وهى فى التاسعة او السابعة ، ولم يتم الزفاف كما هو معلوم الا بعد فترة بلغت خمس سنوات فى اشهر الاقوال

ويؤيد هذا الترجيح أن السيدة خولة اقترحتها على النبى وهى فى السن المناسبة للزواج على أقرب التقديرات الى القبول . اذ لا يعقل انها تشفق من حالة الوحدة التى دعتها الى اقتراح الزواج على النبى وهى تريد له ان يبقى فى تلك الحالة اربع سنوات أو خمس سنوات اخرى

ويؤيد هذا الترجيح ، من غير هذا الجانب ، أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل خطبتها الى النبى ، وان خطبة النبى كانت فى نحو السنة العاشرة للدعوة

فاما ان تكون قد خطبت لجبير بن مطعم لأنها بلغت سن الخطبة وهى قرابة التاسعة او العاشرة ، وبعيد جدا ان تنعقد الخطبة على هذا التقدير مع افتراق الدين بين الأسرتين

واما ان تكون قد وعدت لخطيبها وهى وليدة صغيرة كما يتفق احيانا بين الاسر المتآلفة ، وحينئذ يكون ابو بكر مسلما عند ذلك ، ويستبعد جدا ان يعد بها فتى على دين الجاهلية قبل ان تتفق الأسرتان على الاسلام

فاذا كان ابو بكر رضى الله عنه قد وعد بها ذلك الموعد قبل اسلامه ، فمعنى ذلك انها ولدت قبيل الدعوة وكانت

تناهز العاشرة يوم جرى حديث زواجها وخطبها النبى عليه السلام

ولهذا نرجح انها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زفت اليه، وانها هى رضى الله عنها كانت تسمع تقديرات سنها ممن كان حولها لأنها لم تقرأها بداهة فى وثيقة مكتوبة، فكان يعجبها على سنة الأنوثة الخالدة ان تاخذ بأصغرها ، وكانت هى كثيرا ما تدل بالصغر بين اترابها فلا تنسى اذا اقتضى الحديث ذلك ان تقول : وكنت يومئذ جارية حديثة السن ، او كنت يومئذ صغيرة لا احفظ شيئا من القرآن ، الى اشباه ذلك من احاديثها فى هذا المعنى

ذلك هو التقدير الراجح الذى ينفى ما تقوله المستشرقون على النبى بصدد زواجه بعائشة فى سن الطفولة الباكرة ، وكل تقدير غير ذلك فهو تقدير مرجوح

▭

وقد ملكت ربة البيت الصغيرة بيتها الجديد من اللحظة الأولى لانها كانت تدل فيه بمكانة الزوجة المحبوبة عند زوجها العطوف، وبمكانة البنوة الناشئة عند الأبوة الرحيمة، ومكانة ابنة الصديق العزيز التى اضفى عليها المودة والايثار ما كان بين النبى والصديق من مودة هى اوثق وابقى من مودة الرحم ، لانها مودة الوفاء والاعجاب والايمان ، أو مودة الحياة وما بعد الحياة

وقد سجلت لنا السيدة عائشة خطرات نفسها خطرة خطرة، ووصفت لنا فى بيتها الجديد كل صغيرة وكبيرة وكل ظاهرة وخافية ، ولكنها لم تذكر لنا قط كلمة واحدة تنم على وحشة الانتقال من بيت الى بيت ، ومن معيشة الى معيشة ، ومن ظل أبوين الى ظل رجل غريب عنها لا تعرف عنه الا ما ما تعرفه عن النبى كل صبية مسلمة فى سنها الباكرة . لأن عطف محمد هو العطف الغامر الذى لا يلجىء الى عطف سواه ، وقد أغنى زيدا عن أبيه وأمه فآثر حياة الأسر مع سيده على حياة الحرية مع أبيه وامه ، فأحرى بمثل هذا العطف ان يغنى الفتاة التى تأوى اليه فتلوذ منه بعطف زوج وعطف أب وعطف صديق

وتركها على سجيتها تلعب بالعرائس فى بيت زوجها كما كانت تلعب بهن فى بيت أمها وأبيها . وربما جاءها صواحبها الصغار « فينقمعن ـ كما قالت من رسول الله ـ فكان عليه السلام يسر بهن اليها ليلعبن معها

وقالت جاريتها بريرة تصفها وهى فى السنوات الأولى من زواجها : « ما كنت أعيب عليها شيئا الا انها كانت جارية صغيرة أعجن العجين وآمرها ان تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله »

وكان عليه السلام يتعهدها بما يسرها وان عجب الصحابة

الذين لا يفهمون وقار الدين كما يفهمه ولا تتسع صدورهم لما يتسع له صدره . ودخل عليها ابوها وعندها قينتان تغنيان فى يوم منى والنبى عليه السلام مضطجع مسجى فى ثوبه ، فصاح بها : اعند رسول الله يصنع هذا ؟.. فكشف النبى عن وجهه وقال : دعهن فانها ايام عيد

وكان السودان يلعبون فى يوم من أيام العيد بالدرق والحراب فسألها عليه السلام : تشتهين أن تنظرى ! قالت نعم . قالت : « فأقامنى وراءه خدى على خده وهو يقول : دونكم يابنى ارفدة ـ كنية الحبشة ـ حتى اذا مللت قال : حسبك ؟ قلت نعم ! قال فاذهبى »

وربما مر ابوها رضى الله عنه بالبيت فيسمع صوتها عاليا فى حضرة النبى عليه السلام ، فيدخل غاضبا يتناولها ليلطمها وينهرها قائلا : لا اراك ترفعين صوتك على رسول الله . فينهض عليه السلام ليحجزه ويقول لها بعد خروجه: رايت كيف انقذتك من الرجل ؟

وفى مرة من هذه المرات خرج ابو بكر مغضبا ثم عاد فوجدهما قد اصطلحا . فقال لهما ادخلانى فى سلمكما كما ادخلتمانى فى حربكما

فقال النبى : قد فعلنا

ولم يخف هذا العطف الذى لا نظير له بين الازواج على

السيدة عائشة وهى ما هى فى ذكائها وعلمها ببيوت الصحابة وغيرها . وازدادت به علما يوم شاركها الزميلات فى بيت النبى وشاءت الدواعى السياسية والدينية ان تتعدد زوجاته وتتعدد صلات المصاهرات بينه وبين قبائل الجزيرة العربية ، فقد عرفت مكانتها وهى بين تسع من الزميلات كما عرفت مكانتها وهى موشكة ان تنفرد فى بيت النبوة ، وكان عليه السلام يعدل بينها وبين زميلاتها فيما يملك العدل فيه . اما ميل قلبه فكان يستغفر الله فيه قائلا : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا املك »

وشكرت له هذا الايثار وفخرت به فى معارض حديثها كلما بدا لها معرض للشكر او للتحدث بنعمة الله عليها . فقص عليها النبى يوما قصة النسوة الاحدى عشر اللواتى اجتمعن فتذاكرن اوصاف ازواجهن من خير وشر ، وكانت الحادية عشرة منهن — وهى ام زرع — محبة لزوجها ، فوصفته بأحسن ما يوصف به الازواج فى السر والعلانية . فقالت السيدة عائشة : « بأبى وامى لانت يا رسول الله خير لى من ابى زرع لام زرع »

وهى القائلة بعد وفاة النبى فى مزاياها التى اختصت بها دون اترابها: « فضلت على نساء النبى صلى الله عليه وسلم بعشر! لم ينكح بكرا قط غيرى ، ولا امراة ابواها مهاجران غيرى ،

وانزل الله براءتى من السماء ، وجاء جبريل بصورتى من السماء فى حريرة ، وكنت اغتسل انا وهو فى اناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيرى ، وكان يصلى وانا معترضة بين يديه دون غيرى ، وكان ينزل عليه الوحى وهو معى ولم ينزل وهو مع غيرى ، وقبض وهو بين سحرى ونحرى وفى الليلة التى كان يدور على فيها ودفن فى بيتى »

وكان هذا التمييز سر البيت النبوى فى بداية امره ، ثم شاع فى الجزيرة العربية حتى كان صاحب الهدية من المسلمين يؤخرها ليبعث بها الى النبى وهو فى بيت عائشة

فوقع التغاير الذى لا محيص منه بين الزوجات، وارسلن اليه احداهن ام سلمة فاعرض عن حديثها ثلاث مرات ، فلما اثقلت عليه قال لها : « لا تؤذينى فى عائشة . فان الوحى لم يأتنى وانا فى ثوب امرأة غير عائشة » . . . يريد بالثوب البيت فى بعض التفسيرات ، من قولهم ثاب اليه يثوب فهو فى الثوب الذى لا يزال يرجع اليه

وتوسلن بالسيدة فاطمة رضى الله عنها لما يعلمن من قبول ابيها لكل شفاعة تأتيه منها، فقالت له : « ان نساءك ينشدنك الله العدل فى بيت ابى بكر » قال لها يا بنية ! الاتحبين ما احب قالت : بلى . قال : فاحبى هذه . . . يشير الى عائشة

ويسير على الزميلات المتنافسات ان يدركن حب النبى

لعائشة ويلحظن انها كانت احبهن جميعا اليه واقربهن الى فؤاده

ولكن الذى لم يكن يسيرا عليهن ان يدركنه أو يلحظنه انها هى رضى الله عنها كانت اشدهن حبا له ونفاذا الى نفسه واتصالا بقلبه ولبه .

فكلهن كن يحببنه ويتنافسن على قربه ولو كان فيه التنافس على الموت وفراق الدنيا ومن فيها . وحدثهن يوما عمن تلحق به بعد فراقه الدنيا فقال : « أسرعكن لحاقا بى اطولكن يدا » ... فجعلن يقسن ايديهن وما منهن الا من تتمنى ان تكون هى صاحبة اليد الطولى . ثم ظهر لهن أن المراد بالطول هنا طول اليد بالصدقة والعمل الصالح ... فغبطن زميلتهن زينب بنت جحش ، لأنها استحقت اللحاق به لعملها بيدها واكثارها من الصدقات على مستحقيها

الا ان الحب الذى يبدو من فطنة عائشة لسرائر النبى اعمق واقوى . فما منهن من لصقت بنفسه كما لصقت بها ومن نفذت الى معانيه كما نفذت اليها ومن عاشرته فى روحه وطويته كما عاشرته بروحها وطويتها. وفى كلامها من الشواهد على ذلك ما ليس فى كلامهن على تيسر الوسائل لهن أن يعرفن مثل ما عرفت وأن ينقلن عنه مثل ما نقلت . وليس ادل على اقتراب الحب من هذا الاقتراب الذى امتازت به

عليهن . فكان ايثار النبى لهـا ضربا من العـدل على هذا الاعتبار

لقد كانت تحبه حب المسلمة لنبيها

وكانت تحبه حب الزوجة لزوجها والمرأة لرجلها، وكانت تعجب بجماله كما تعجب بأدبه وعظمة قدره ، وتقدم انها رأته فى يوم قائظ وقد توهج خداه فقالت تتمثل بكلام عروة بن الزبير

ولو سمعوا فى مصر أوصاف خده
لما بذلوا فى سوم يوسف من نقـد
لواحى زليخـا لو رأين جبينـه
لآثرن بالقطع القلوب على الأيـدى

وكان يسرها ان تستمع الى صوته وتصغى الى ترتيـل حديثه كما يسرها ان تستوضح معناه لأنـه ـ كما كانت تقول لسائليها ـ لا يسرد كسردكم هذا ولكنـه « يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه »

وكانت تغار عليه أشد غيرة عرفتها امراة على زوجهـا ، وربما خرج من عندها فى ليلتها فاذا هى تتبعه الى حيث ذهب مخافة ان يلم بيت زميلة من زميلاتها ، ووجدته فى ليلة من هذه الليالى قد ذهب الى المقابر يصلى للشهداء ، ويستغفر لهم ، فعادت الى بيتها تقول لنفسها : بأبى انت

وامى . انت فى حاجة ربك وانا فى حاجة الدنيا !. ولكنهـا لبثت مكروبة الصدر مما خامرها من خاطرها الأول ومن خطأ ظنها. فلما قفل عليه السلام اليها لحظ ما بها فسألها: ما هذا النفس يا عائشة ! فقالت : بأبى انت وامى . اتيتنى فوضعت ثوبيك ثم لم تستتم ان قمت فلبستهما. فأخذتنى غيرة شديدة ظننت انك تأتى بعض صويحباتى حتى رايتك بالبقيع تصنع ما تصنع ... وخرج مرة اخرى ثم عاد اليها فاذا هى فى مثل تلك الحالة . فقال : اغرت ؟ قالت : وهل مثلى لا يغار على مثلك ؟ فقال : لقد جاءك شيطانك !

ولم تنس قط ان تتحلى بما يروقه من مرآها . فكانت تلبس المعصفر والمضرج وتتحرى ما يعجبه من الطيب والحلية ، ودخلت عليها امراة وهى معصفرة فسألتها عن الحناء فقالت : شجرة طيبة وماء طهور . وسألتها عن الحفاف فقالت لها : « ان كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتصنعيهما أحسن ما هما فافعلى »

ومن الجائز ـ أو ربما كان الواقع ـ أن زميلاتها أمهات المؤمنين كن يغرن على النبى مثل غيرتها ويجهدن فى رضائه مثل جهدها . ولكنهن ولا ريب لم يبلغن شأوها فى حبها اياه حين نفهم من الحب ذلك الاقتراب بين النفسين بالبداهة

والشعور . فليس فى أحاديثهن عنه مثل ما فى أحاديثها عنه من ذلك الاحساس بالقرب وذلك النفاذ الى الطوية، وليست المسألة هنا مسألة الكثرة او القلة فى الأحاديث فربما كان تعليل الكثرة فى أحاديث عائشة عن النبى انه كان عليه السلام أكثر تحدثا اليها وارتياحا الى مجالستها ومسامرتها. ولكنها مسألة الرفق فى الأداء والخبرة بالمعنى والقدرة على الاستيحاء والشعور الباطن بقلة الحواجز بين النفسين واتصال الحس بينها واللقانة

ومن البديه انها لم تبلغ هذه المنزلة فى حب النبى وفهمه طفرة واحدة ولا فى سنة واحدة أو سنتين ؛ بل لبثت السنوات الأولى من عشرتها له وهى تقترب من الأنس به الى المعرفة بنفسه وعقله والترقى الى عظمته ونبله ... حتى ادركت ما يتاح لها ان تدرك من تلك العظمة التى تعلو على هامتها وهامات الرجال من حولها، ولكنها هى ـ ببداهة المراة وبداهة الحب الأنثوى ـ كانت تستقرب ما يبعد على غيرها ، وتستعيض ما يفوتها من الفهم الواضح بما يفوتهم من اللقانة الباطنية والوعى المستسر فى الاخلاد

ومضت السنوات الأولى فى عشرة النبى وهى تفقه من أحاديثه ما تيسر لها أن تفقه ولا تقرأ كثيرا من القرآن ، او كما قالت فى حديث الافك : كنت « جارية حديثة السن لا

اقرا كثيرا من القرآن . . والتمست اسم يعقوب فما أذكره فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون »

وقد امهلها النبى فى هذه السنوات رفقا بها واعدادا لفهمها وعزمها ولكنه لم يفتأ رويدا رويدا يشركها فى العبء الذى ينبغى ان تنهض به زوجة النبى وام المؤمنين وسفيرته الأولى الى عالم النساء فى عصره وفيما يليه من العصور

فكانت تحضره اذا بايع النساء او صلى بهن او جلس اليه يسألنه فى امور الدين وآداب الزوجية ، وينفق كثيرا أن يعرض عن الجواب حياء فيوكلها بالتفسير والاسهاب حيث يعز الفهم على بعض سائلاته اللواتى يستقصين فى السؤال

سألته اسماء بنت شكل من نساء الأنصار : كيف تكون الطهارة من المحيض ؟ فقال لها : « خذى فرصة ممسكة فتوضأى ثلاثا » او قال تطهرى ثلاثا . . . فقالت : وكيف اتطهر ؟ قال : سبحان الله ! تطهرى بها ، واعرض بوجهه حياء . فاجتذبتها السيدة عائشة وكفتها عن سؤاله

وما زالت رضى الله عنها تعى من سنن النبى فى المسائل النسائية وغير النسائية حتى احتاج الرجال ان يسألوها ويرجعوا اليها فى كل ما تراجع فيه السنن النبوية من شئون

عامة وخاصة . ومن اعم المسائل التى روجعت فيها أن معاوية كتب اليها لتوصيه وترشده فارسلت اليه تقول : سلام عليك . أما بعد فانى سمعت رسول الله صلى‌الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله الى الناس »

فلم يكن اعجب من سؤال معاوية فى تعميمه الا حسن الاختيار فى‌هذا الجواب ، وهو الزم ما يزود به الملوك من وصية وارشاد

وقد نهضت السيدة عائشة بأمانة التبليغ والتعليم احسن‌نهوض واوفاه. فتورعت عن‌كتمان شيء من‌الاشياء التى تسأل عنها ولها اتصال بقواعد الدين واصول التطهير وشروط العبادات ونواقض الصلاة والصيام . فأسلوبها فى تبليغ هذه الأحكام هو اسلوب التعليم واسلوب ام المؤمنين فى خطاب بناتها وبنيها من المسترشدات والمسترشدين . ولم يكن فى مقدورها ان تتوخى اسلوبا غير هذا الأسلوب ولو عرضت لأخص الأمور التى تسكت عنها النساء ، لانها المرجع الذى لا يغنى عنه مرجع فى سنن النبى ومأثوراته واعماله . فمن الاخلال بالأمانة النبوية أن تسكت عن سنة مطلوبة يعرضها السكوت للضياع

ولقد تكون هذه السيدة الفضلى التى أفصحت عن كل فتوى تسوية سئلت عنها وهى ما تأذن لعمها فى الرضاع أن يراها الا بعد مراجعة النبى عليه السلام . فأسلوبها فى تفصيل السنن النبوية والقواعد الشرعية انما كان فريضة الأمانة وضريبة الوفاء ، ولم يكن شيمة الطبع واللسان

▭

ودامت هذه الحياة الزوجية النادرة زهاء تسع سنين الى ان توفى النبى عليه السلام

ومن الحق ان توصف بأنها حياة زوجية سعيدة لأننا لا نعرف بين ازواج الهداة والعظماء من ظفرت بأسعد منها او كانت ارضى من السيدة عائشة عن حياتها

ففى طوال هذه السنين لم تمتزج هذه الحياة قط بكدر او مساءة تعود فيها التبعة على احد من الزوجين

واخطر ما الم بهذه الحياة الزوجية فى السنين التسع كلها حديث الافك الذى سنأتى عليه بعد ، وغضب النبى من زوجاته جميعا لتنازعهن فى فترة من الزمن والحافهن عليه فى طلب المزيد من النفقة والزينة

فأما حديث الافك فلا يد للزوجين فيه ، وقد امتحنت به أريحية النبى وعطفه على اهله فأسفر عن خير ما تطمح اليه الزوجة من حنو وسماحة واعزاز

واما غضب النبى من زوجاته لتنازعهن والحافهن فى طلب النفقة فعارض مضى مرة ومضى أمثاله عشرات من المرات فى كل حياة زوجية بين جميع طبقات الناس ، وكان خير درس لأمهات المؤمنين يعلمهن أن يصبرن على ضرورات العيش كما يصبر النبى عليها ؛ لأنهن قدوة فى القناعة ومغالبة الهوى ولسن بقدوة فى الترف ونعمة العيش ، وقد خيرن بعد هذا الدرس بين التسريح والصبر على نصيبهن فاخترن اجمل النصيبين بهن ، وهو الصبر على سنة الأنبياء وأمهات المؤمنين

ومما لا شك فيه أن السيدة عائشة قد خامرها الأسى فى هذه الحياة الزوجية لشىء لا حيلة لها ولا للنبى فيه وهو الحرمان من الذرية التى كانت تتوق اليها كما تتوق كل أنثى ، ولا سيما بعد ما علمت من حب النبى لزوجته الأولى ووفائه لعهدها وترديده لذكراها لأن له البنين والبنات منها

وظهر المها هذا حين قالت للنبى وهى حزينة كاسفة : كل صواحبى لهن كنى !.. قال فاكتنى بابنك عبد الله ! يشير الى عبد الله بن الزبير ابن اختها اسماء . فجعلت تكتنى به وتحبه ذلك الحب الأموى الذى يستمد القوة من الحنو والشوق والحرمان

واتفقت الأقوال على انها رضى الله عنها لم تحمل قط الا

رواية جاء فيها انها اسقطت ولدا سماه النبى عبد الله فكانت لهذا تكنى بأم عبد الله .

وراقها ان تدعى ام المؤمنين وان يناديها الناس يا امه يا امه ! فكان فى هذا النداء تعزية كما كان فيه تشويق وتذكير .

والمراة لا يهون عليها فقد الذرية ولا سيما اذا احبت الزوج الذى تود ان ترزق منه الذرية ، ولكنها اذا التمست النهوين فلن تجد تهوينا ابر بها وأروح لقلبها من شعورها بعطف زوجها عليها ، وانها بلغت من ذلك العطف ما لا تزيده الذرية التى تتمناها

قلنا فى كتابنا عبقرية محمد : « لسنا ندرى لم طالت الفترة التى مضت على ازواج النبى جميعا بغير عقب . ولكنا لا نستبعد تعليلها باجتماع المصادفات التى لا يندر ان تجتمع فى امثال هذه الاحوال . فعائشة البكر التى لم يتزوج النبى بكرا غيرها قد مات عنها عليه السلام وهى دون العشرين ، وهى سن قد تبلغها المراة ولا تلد ، وان كانت ولودا فيما بعدها . اما ازواجه الاخريات اللاتى تزوجن قبله فلا نعلم من اخبارهن انهن اعقبن لازواجهن الاولين خلفا غير رملة ام حبيبة وهند بنت امية المخزومية ، وهذه

كانت مسنة يوم بنى بها النبى عليه السلام ، وفى عمر لا يستغرب فيه امتناع الولادة . فكلهن ما عدا هاتين لم يلدن للنبى ولا لزوج قبله ، واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجيبة المعضلة التى يصعب تعليلها اذا تذكرنا ان النبى قد توخى فى اختيارهن تلك الأغراض العامة التى اجملناها فى الفصل السابق ولم يتحر منها النسل خاصة : وهى الايواء الشريف والمصاهرة. وبعضهن ـ بل معظمهن ـ قد لقين من الشدائد والمخاوف وعناء الهجرة البعيدة ما يعقم الولود . فاذا اضفنا الى ذلك معيشة الكفاف وضريبة العظمة النبوية التى اشرنا اليها على سبيل الاحتمال ، واشتغال النبى فيما بين الخمسين والستين بتعزيز الدين وقمع الفتن ودرء الأخطار ـ لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر العصى على التعليل »

وفى صدد الكلام عن عائشة فى كتاب خاص بها يدعونا سياق التحليل والتعليل الى مراجعة البحث والعلم فى ظواهر حياتها البينة ، ان كان للعلم كلمة تقال فى هذا الموضوع

فليس من الغريب أن يتأخر حمل المراة الى ما بعد العشرين ثم تلد مرات ، وقد كان من المحتمل ـ بل الراجح ان السيدة عائشة تجاوزت العشرين حين وفاة النبى عليه السلام .

واذا كان تأخر الحمل الى ما بعد العشرين لا يطرد لزاما

فى احوال النساء عامة فهو من العوارض التى تشاهد ولا تستغرب اذا اتفق لهـا سبب يرجع فى تعليله الى العـلم والمشاهدة

والعوارض التى نستطيع أن نهتدى اليها فى تاريخ السيدة عائشة هى أنها قد اصيبت فيما دون العاشرة بحمى مزقت شعرها كما ذكرت هى فى بعض احاديثها ، وانها كانت توعك من حين الى حين كما يفهم من قولها فى حديث الافـك : « واشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا والناس يفيضون فى قول اهل الافك ولا اشعر بشىء من ذلك ... ويريبنى فى وجعى أنى لا اعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين اشتكى ... فاخبرتنى بقول أهل الافك فازددت مرضا الى مرضى » ... وقد علمنا من حديث الافك انها اذا فوجئت بخبر محزن او مغضب تصاب بحمى نافض كما يصاب الذين تعاودهم حمى البرداء فى هذه الحالات

والأطباء الذين سألتهم عن هذه الحمى التى تسقط الشعر وتتجدد لها معـاودة تنهك الجسـم رجحوا أنهـا البرداء (الملاريا) أو التيفويد ، والأولى ارجح . لأنها كانت فاشية بأعراضها المعروفة بين أهل المدينة فى ايام الهجرة

قالت السيدة عائشة : « لما قدم رسـول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهى اوبأ ارض الله اصاب اصحابه منها بلاء وسقم ، وصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ،

واصابت ابا بكر وبلالا وعامر بن فهيرة ، فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيادتهم وذلك قبل ان يضرب علينا الحجاب فأذن لى ، فدخلت عليهم وهم فى بيت واحد. فقلت : كيف تجدك يا ابت ؟ فقال :

كل امرىء مصبح فى اهله
والموت ادنى من شراك نعله

فقلت : والله ما يدرى ابى ما يقول

ثم دنوت من عامر فقلت : كيف تجدك ياعامر؟ فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه
ان الجبان حتفه من فوقه
كل امرىء مجاهد بطوقه
كالثور يحمى انفه بروقه

قلت : والله ما يدرى عامر ما يقول

وكان بلال اذا اقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

الا ليت شعرى هل ابيتن ليلة
بواد وحولى اذخر وجليل (١)
وهل أردن يوما مياه مجنة
وهل يدنون لى شامة وطفيل (٢)

---

(١) نباتان فى وادى مكة احدهماوهو الاذخر طيب الرائحة والآخر الثمام
(٢) جبلان بمكة

قالت عائشة : فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : انهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى . فقال : اللهم حبب الينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها وبارك لنا فى صاعها ومدها وانقل حماها فاجعلها بالجحفة » وهى قرية فى الطريق من مكة الى المدينة

فاذا كانت حمى البرداء قد اصابت السيدة عائشة فيما دون العاشرة وظلت عقابيلها تعاودها فأيسر ما يقال هنا اننا حيال عارض ذى بال يلتفت اليه فى تعليل ما أسلفناه

وسألت افاضل الأطباء فى ذلك فقالوا : ان هذه الحمى لا تعطل الحمل ضرورة ولكنها قد تعطله من طريق اضعاف الجسم كله حتى يتغلب على عقابيلها

قلت : واذا اضيفت اليها معيشة الكفاف ؟

وانما سألتهم هذا السؤال لأن المتواتر عن معيشة النبى عليه السلام فى بيته انه كان لا يشبع من خبز البر أو الشعير ثلاث ليال متواليات ، وأنه لم يشبع من خبز وزيت مرتين فى يوم واحد ، وانه هو واهله كانوا لا يصيبون من المطاعم الا بمقدار ما يدفع الجوع

فكان من جواب الأطباء أن عقابيل الحمى وقلة الغذاء من الأسباب التى لا يعدوها النظر فى بحث هذا الموضوع ، فاذا صحت مع هذا رواية السقط فهى دليل على اثر تركته

الحمى يعترض وظيفة الحمل والولادة

وايا كانت هذه العوارض فهى كل ما لدينا من أسباب المراجعة العلمية التى تعلل لنا حرمان السيدة عائشة رضى الله عنها من نعمة الذرية . نلم بها لأن الالمام بها لا غنى عنه فى هذا المقام

▭

وأية كانت علة هذا العارض فالأمر الذى لا شك فيه أنه لم يكدر صفو المودة والبر بين النبى واهله ، وأنه لم يمنع هذه الحياة الزوجية أن تكون قدوة للمقتدين فى العطف وأدب المعاشرة . وكانت هى العروة الوثقى كما وصفها النبى عليه السلام . فاذا سألته السيدة عائشة بين الفينة والفينة مدلة بمكانها عنده وعطفه عليها : كيف حال العروة يا رسول الله ؟ قال : على عهدها لا تتغير

اما العلاقات البيتية التى فرضتها هذه الحياة الزوجية على السيدة عائشة رضى الله عنها فقد كانت على احسن ما تتسنى العلاقات بين أناس تجمعهم معيشة واحدة

فهى وزميلاتها كن يتغايرن ويتنافسن لا محالة كما تتغاير النساء فى كل مكان ، ولكنهن لم ينسين قط انهن نساء نبى يتأدبن بأدبه ويتطلعن الى رضاه ويفزعن من غضبه

فقصارى ما سمعناه من فلتات الغيرة على لسان السيدة

عائشة انها كانت تقول عن السيدة خديجة « انها عجوز حمراء الشدقين » ثم يعاتبها النبى فتندم ولا تعود الى مثل هذه المقالة . . او انها عابت السيدة صفية مرة فقالت انها قصيرة . . . فاستكبر النبى هذه الكلمة وقال لها انها لتمزج البحر اذا مزجت به . فلم تعد الى مثلها

وعلى ما كان بين عائشة وزينب بنت جحش من التنافس الشديد فى الجمال والزلفى سنحت لزينب سانحة تقول فيها ما تقوله الضرة الحانقة فلم ينبس فمها بكلمة باطل . وذلك اذ سالها عليه السلام فى حديث الافك فاستعاذت بالله وقالت: « احمى سمعى وبصرى . والله ما علمت الا خيرا »

واحست سودة احدى زميلاتها امهات المؤمنين انها اسنت وضعفت فتركت ليلتها لعائشة راضية ، وقالت عائشة تشكرها : « ما رايت امراة احب الى أن اكون فى مسلاخها من سودة »

فكل ما روى لنا من تغاير زوجات النبى ان ذكرنا انهن نساء من طينة الأنوثة الخالدة فلن ينسينا انهن نساء نبى يتأدبن بأدبه ولا يجاوزن بالغيرة ما يجمل بهن فى كنفه ورعايته ، وان تسع اخوات شقيقات من اب واحد وام واحدة ليقع بينهن من شحناء الغيرة اذا اجتمعن فى بيت اسرتهن اضعاف ما روى لنا من غيرة زوجات النبى فى عشرتهن الطويلة

أما قرابة النبى فأعزها قدرا عنده قرابة السيدة فاطمة وزوجها وبنيها وكانت الصلة بين السيدة عائشة وبينهم جميعا على أكمل ما ترضاه السجية الانسانية فى كل صلة من قبيلها

فالسيدة فاطمة كانت أحب الناس اليه عليه السلام كما هو العهد بأبوته الشريفة التى تشمل الناس جميعا بالحنان والمودة فضلا عن بناته وبنيه . وسئل ـ كما قالت عائشة مرة ـ : من احب الناس اليك ؟ فقال : فاطمة ! ثم سئل : ومن الرجال ؟ فقال زوجها

وفاطمة بعد أم السبطين اللذين كان عليه السلام يلاعبهما ويلاطفهما ويوصى بهما ويسميهما ولديه وهو مشوق الى انجاب الأبناء ، وهى كذلك بنت خديجة التى نفست عليها عائشة قديم مكانتها وطويل وفاء النبى لذكراها .

فالسيدة فاطمة والسيدة عائشة شريكتان فى قلب واحد تتنافسان عليه . ولكنها شريكة بين كريمتين

ومن اثر هذه المنافسة أن أمهات المؤمنين اوفدن السيدة فاطمة الى النبى ليعدل بينهن وبين عائشة فقبلت الوفادة

وربما خطر للسيدة عائشة ان عليا رضى الله عنه قد تأثر بهذه المنافسة يوم سأل النبى فى حديث الافك فقال :

« ... لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير »

ومن الصدق للتاريخ وللطبع الانسانى أن نلاحظ هـذه الأمور ، لأن الطبع الانسانى لن يدع حقوقه على ابنائه ولن يكون الانسـان من لحم ودم الا اذا كان فيـه للحم والدم نوازعهما التى لافكاك منها • وان راضها أدب النبوة ونبل العشيرة فثابت الى اكرومة تجمل بالكرام

فالصلة بين عائشة وقرابة النبى قد كانت صلة الأدب والتجمل والمجاملة ، ولكنها كانت فى مجال لا يغيب فيـه التنافس على العطف والاعزاز

والمثل هنا أيضـا قدوة المقتـدين فى الأسر العليا التى عرفها التاريخ، سواء منهم من أخذ بأدب الدين أو بأدب الدنيا

وهى على الجملة « حياة زوجية » سـعيدة نزلت منها السيدة عائشة منزلة الزوجة المدللة فى طوال ايامها ، ثم منزلة الشريكة المعينة فى عبء التبليغ والرسالة ، وبلغت من الثقة بها فى هـذه المعونة حمادى ما تبلغه شريكة حياة . فحفظت من تعليم النبى ما لم يحفظه أحد ، وحفظ عندها النبى اغلى الودائع من بعده : صحف الكتاب وسنته المشروعة لتابعيه